

الحسب وتعظيم الآباء

يقول شاتوبريان : « يمكننا أن نتمثل الأنفة التي طبع بها نظام الإقطاع النفوس ، في أن أصغر إقطاعي كان يعتبر نفسه في مرتبة الملوك . ولقد حدث مثلاً أن مرَّ الإمبراطور فردريك وهو يجتاز مدينة « تونج » بالبارون « كروكنجن » فلم يقف البارون لتحيته ، بل اكتفى بتحريك قبعته تعبيراً عن ترحيبه ؛ فلقد كانت طبقة الأرستقراطيين تكبت الحريات العامة وتعادى في الوقت نفسه السلطان الشرعي^(١) ولم يكن في بلاد العرب نظام إقطاعي ؛ فلا « دوق » ولا « ماركيز » . وإنما كان كل عربي في خيمته سيداً كامل السيادة ، يحسب نفسه — مهما كان فقيراً معدماً — نداءً لأغني الأغنياء وأقوى الأتوياء . لقد كانوا جميعاً أحراراً ، شجعاناً ، فباتوا متساوين لا يعترفون بمولى عليهم سوى رب الكون . حقاً لقد كان لكل قبيلة رئيس تعتر به ، قد فرضته فضائله وحدها وانتخبه أهلها . ولكن هذا الرئيس لم يكن يتمتع إلا بنفوذ نسبي ؛ فقد كان أفراد القبيلة يوقرونه ، ويحتمعون لديه للتشاور ، وكثيراً ما كانوا يأخذون بآرائه السديدة ، ولكنه ما كان يستطيع أن يصدر أمراً . ولقد كان لقبه في الواقع لقباً فخرياً ، ورمزاً للتقدير ، وثناء عاماً على أعظم

(١) شاتوبريان : تحليل وشرح لتاريخ فرنسا (الإقطاع ، الفروسية الخ) ص ٨٢ .

القوم حكمة وشجاعة وأكرمهم ضيافة وأفصحهم لسانا . وينبئنا الجاحظ^(١) أن قبيلة « نذار » كانت تنتخب أحكمها وأن « ربيعة » كانت تختار أجودها ، وأن اليمن كانت تصطفى أعرقها ، غير أنه كان لا بد من تحقق ست صفات في طالب الرئاسة أيما كان ، وهي : الجود والبطولة الحربية والجلد والحلم والتواضع والفصاحة . وقد سئل قيس بن عاصم : كيف وصلت إلى حكم قبيلتك ؟ « فأجاب : بإذاعة المعروف ، وإغاثة الملهوف ، وفض المنازعات » ثم أضاف قائلاً : « ويبلغ الرجل المكان المرموق بالذكاء والعفة والأدب والمعرفة » .

وجملة القول ، فإن رئيس القبيلة إذ ذاك كان بمثابة الملك الدستوري ، ولكن بلا امتيازات أو مخصصات ، وكان عليه - للحصول على السلطان في قبيلته - أن يظل مفتوح الدار ، رقيق القول ، جم الحسنان ، لا يسأل سواه شيئاً ، يحب الصغار كما يحب الكبار ، ويعامل جميع الرجال على حد سواء^(٢) . يقول أعرابي قديم : إننا لا نمنح شرف الرئاسة امرأة ما لم يعطنا جميع ما يقتنى ، ويأذن لنا أن نطأ بأقدامنا كل ما هو عزيز لديه ، وكل ما يود أن يراه مشرفاً ، وما لم يؤد لنا ما يؤدي العبد لسيد^(٣) .

(١) كتاب شرعة المروءة .

(٢) المسموي : مروج الذهب . طبعة وترجمة مينار وكورك (Courteille)

، باريس ١٨٦١-١٨٧٧ . الجزء الخامس ص ١٠٦ .

(٣) عن دوزي : تاريخ مسلمي أسبانيا من ٧١١ إلى ١١١٠ . ليد ، ١٨٦١ .

وليس الإسلام في جملة إلا جمهورية استفتائية يتولاها رئيس
تنتخبه الجماعة .

وقد حرص خلفاء محمد الأوائل — رغم أن الخليفة كان يجمع في
شخصه السلطين الدينية والدنيوية — على أن يستشيروا مواطنهم وأن يتبعوا
رأيهم . وهذا هو أبو بكر يقول في خطبة له يوم بويج بالخلافة : « أطيعوني
ما أطعت الله فيكم ، فإذا عصيته فلا طاعة لي عليكم » . كما يعلن عمر
ابن الخطاب من فوق المنبر قوله : « يا قوم ، من رأى فيّ اعوجاجا
فليقومه » ، فإرد عليه أعرابي قائلا : « والله لورأينا فيك اعوجاجا لقومناه
بسيوفنا » فيقول عمر : « الحمد لله أن جعل في المسلمين من يقوم اعوجاج
عمر » .

وفيما بعد ، حين صارت الخلافة وراثية ، لم يكن الخليفة
يصبح حاكما شرعيا حتى ينادى به الشعب ويعترف بسلطانه . والواقع
أنه لما كان العرب جميعا يعيشون حياة الرعاة البسيطة ، ويلبسون نفس
الملابس ، ويتناولون نفس الغذاء ، فقد كانوا لا يقرون ، بل لا يتصورون
وقوع التفرقة بينهم في العلاقات الاجتماعية . ولم يكن ثمة ما يميز عربيا
من عربي آخر ؛ فالثروة لم تكن تمثل في أعينهم امتيازاً ، بل كانت تلزم
صاحبها أن يسمو ويهب . ولقد كان المثل الأعلى للفارس أن يستبين
بالمال ، وأن يعيش في يومه ليومه من الغنائم التي جمعها بشجاعته بعد

أن قد ألتف ترائه جودا وإحسانا^(١) . ثم لقد كان كل شيء في حياة البلوى معرضا لأن يروح ضحية هجوم خاطف ، ولذا كان ينبغي أن نعى حرفية هذه الحكمة التي كثيراً ما ترد في مدائح الشعراء المعوزين : « المال يقبل صباحا ويولى مساء »^(٢) .

ولم يكن النسب وحده شرفا ، فما كان ليخلع على صاحبه أى امتياز . وما قيمة النسب العريق وما جدواه في ساعة الخطر ساعة :

إذا طرقت لإحدى الليالى بداهية

... ..

بداهية يصغى الكلاب حسيها وتخرج من سر النجى علانية^(٣)

أجل ، لقد كان البأس والإقدام هما عدة أولئك المقاتلين المتربصين دائما . على أننا يجب أن نلاحظ أنه لم يكن قط لدى المسلمين المستقرين — كما لم يكن لدى البدو — أرسقراطية بمعناها المعروف ، أى طبقة ثابتة خاصة ، فبادى المساواة من ناحية وتعدد الزوجات من ناحية أخرى قد حالا دون قيام « أرسقراطية » كالتى قامت لدى معظم الشعوب

(١) كوسان دى برسفال : بحث في تاريخ العرب قبل الإسلام . باريس ١٨٤٦ ، الجزء الثاني ، ص ٥٥٥ و ٦١١ .

(٢) حاتم الطائي .

(٣) الحنساء (ص ٨١ عائشة عبد الرحمن) .

المسيحية^(١) . وهكذا كان شرف المولد اعتبارا قليل السطوة في الشرق . ولا يعنى ذلك أن القوم لم يكونوا يحلون ذكرى عظماء الرجال أو أن هذا الإجلال لم يكن يعود على خلفهم بالتقدير والود ، بل إنه كان إلى جانب ذلك ، يعتبر هذا التقدير وهذا الود قرضا وعلى من يقترضه أن يرده أعمالا حميدة مجيدة . يقول شاعرهم :

لسنا وإن كرمت أوائلنا يوما على الأحساب نتكل
 نبني كما كانت أوائلنا تبني ونفعل مثل ما فعلوا^(٢)

وأبسط منه قول المثل الفرنسي في نفس المعنى : « دم كريم لا يستطيع أن يكذب » . وكانت تلك هي الفكرة الأولى للأرستقراطية الحقيقية في أوروبا ، وفي فرنسا بوجه خاص . ولقد بين ذلك الأستاذان « دوفرنوا وهارمان » فأحسنا البيان ، في كتابهما « مباراة شوفنسى سنة ١٢٥٨ » إذ قالوا : « إن نبل الأصل ينبغى أن ينم عنه مجرد روح السيد واستعداده النفسى ، لأن سمو عواطف القلب يعطى الود ، والأصل يمنح النبل ، ورفعة المشاعر (أو فائز : التزوع إلى المثل الأعلى) يورثها الوالد الولد . وكل هذه فضائل يكمل بعضها بعضا ، وتتصل وشائج بعضها

(١) انظر جارسان دى تاسى (Garcin de Tassy) : « أعلام وألقاب إسلامية »
 مقالة في « الصحيفة الآسيوية » عدد مايو - يوزية ١٨٥٤ ص ٤٢٢ .

(٢) المسعودى ، الجزء الثالث ، ص ١١٢ .

بعض ، وتؤلف وحدة جامعة لا تنقسم عراها (١)»

ولايكم ما قاله في هذا المقام شعراؤنا :

يقول المتنبي :

لا بقوى شرفت بل شرفوا بي وبفسي فخرت لا يحدودي
وبهم فخر كل من نطق الضا د وعود الجاني وعود الطريد

ويقول الفرزدق :

أولئك آباءى فجئنى بمثلهم إذا جمعتنا يا جرير المحافل

ويقول النابغة الجعدي :

بلغنا السماء مجدنا وجدودنا وإنا لرجو فوق ذلك مظهرا

ويقول عامر بن الطفيل :

وإني وإن كنت ابن سيد عامر وفي السرّ منها والصريح المهذب
فما سودتني عامر عن وراثة أبى الله أن أسمو بأم ولا أب
ولكنني أحى حماها وأتقى أذاها وأرى من رماها بمقنب

H. Duvernoy et Harmand : Tournoi de Chauvency en 1285. (١)

Paris, 1905. p. 42.

وإذا عمد الشعراء إلى المديح ، فهم إنما يمدحون فضل الأعمال أكثر
بما يمدحون شرف المحدث مهما كان عريقا . وهكذا حينما أشاد الشاعر
بابن عبد مناف ، فإنه لم يمدحه بنسبه — وهو الشريف الرفيع — بل
مدحه بعمله قائلا :

عمرو الذى هشم الثرى يد لقومه ورجال مكة مستنون ، عجاف

فلم يكن لدى العرب إذن أرسقراطية ثروة ، ولا أرسقراطية نسب ،
بل كان لديهم أرسقراطية فردية شخصية مؤقتة تخلعها على المرء بطولته
وفصاحته ومآثره . وذلك شرف مكمل لتلك الأرسقراطية العامة المجيدة
التي تخلعها على المرء صفة العروبة وحدها .

ولقد شاع فى فرنسا الاعتقاد بأن الأمة الفرنسية تنحدر بجملتها من
« الفرنك » ولكن إلى من ينسب هؤلاء « الفرنك » ؟ لقد تردد أنهم رفاق
« لإينيه » أو سواهم ممن نجوا من واقعة « طروادة » . وذلك رأى غريب
يستمد شكله من ملحمة « فرجيل » وموضوعه من مصدر آخر ، ويتصل
بذكرىات مختلطة ترجع إلى الزمن الذى هاجرت فيه قبائل الجنس الجرمانى
البدائية من آسيا إلى أوروبا عن طريق ضفاف « البونوكسان » . ومع ذلك ،
فقد أجمعت الآراء على هذا القول ، وشاطر الكهنة وأكثر الرهبان ثقافة —
ممن كانوا يستطيعون قراءة « جريجوار دى تور » وكتب القدماء — شاطروا
الشعب اعتقاده ، وحيوا « فرانسىون بن هكتور » مؤسسا للأمة الفرنسية

وأول ملك عليها (١) .

وأما العرب فما كانوا ليقنعوا بنسب خرفي فضلا عن أنه حديث العهد . فقد انتسبوا إلى إسماعيل ابن العاهل إبراهيم خليل الله ، وأرسوا هذا الأصل البعيد على أدلة لا تدحض بل يمكن القول عنها : إنها أدلة علمية ؛ إذ أن المشتغلين باستقصاء النسب عندهم كانوا من العلماء ، وظلت الأنساب علم العلوم لديهم زمنا طويلا . ولما كان العرب جميعا أبناء إسماعيل ، فقد اعتبروا أنفسهم بحق أشرف شعوب الأرض طراً وأعلنوا ذلك على الورى وألقوا ديمقراطية شريفة . فالجميع في بلاد العرب شرفاء ، ولكل قبيلة نسبها ، وأمثالها ، وأيامها المحيدة ، وشعراؤها ، وأبطالها ؛ فإذا اعتبرت قبيلة أشرف من الأخرى فما ذلك إلا لأنها ترجع في درجات النسب إلى طبقة أقرب إلى الأصل ، وتنحدر انحدارا مباشرا من الجذ الأعلى ، إسماعيل أو قحطان . فكان ذلك هو فخر الجنس . . فخراً جماعيا لا يقتصر على أسرة واحدة ، بل يشمل قبيلة بأسرها . ولقد كان المرء يفتخر بقبيلته قبل أن يفتخر بعائلته ، وكانت أجداد كل أسرة على حدة تؤلف تراثاً يعود على المجموع ، ويزيد ويقوى من جيل إلى جيل ذخير المآثر والحامد . وهكذا كانت القبيلة هي المركز الرئيسى الذى ينتمى إليه كل أبنائها ومنه يستمدون المجد سواء في ذلك أهونهم شأنًا وأعظمهم قدرا .

(١) أوجوستان تيرى : قصص عن عهود الميرفنجيين ، ص ١٧ .

ولن يستطيع تعبير أن يصف ما كان يربط العربي بقيبلته من ولاء وعاطفة ووفاء وتعظيم : ولاء مطلق ، وعاطفة لا تتزعزع ، ووفاء لم تصنعه الإرادة ولا يقف عند حد ، وتعظيم كالتقديس . . شعور أعمق من الوطنية ، وحمية أقوى من العقيدة ، تحفز إلى المخاطر ، إلى الحروب ، إلى جميع بطولات العرب ؛ فالعربي ، من أجل قبيلته ، على أهبة لكل تضحية ، لا يتردد ولا يفكر ، بل هو يعرض في كل لحظة حياته للهلاك من أجلها ويقدم على المغامرات الجنونية متى كان لقومه فيها منفعة وسعادة ومجد وشرف .

قال أحد الخلفاء : « أكرم قبيلتك ، فإنها الجناح الذي يرفعك ، وبها تستطيع أن تكبر وتسد . وأهلك درع لك ضد الخصوم ، فأكرم شرفاء الرجال ، وعد المرضى ، وأسعف المنكوبين ، وشاطر الجميع أفرحك وآلامك » .

وكان الجميع متحابين إذ يحبون وطنهم الصغير ، وكانوا يتعاونون ويشعرون فيما بينهم بسعادة كل منهم أو شقائه ، فهم يشيدون بمناب هذا ويهرعون إلى إغاثة ذلك ، ويتأثرون جميعاً لإهانة لحقت بأهونهم . ولقد كانوا يؤلفون فيما بينهم ما يشبه جماعة عاملة ظهرت من كل خسة ، وغرست فيها وتفتحت أجمل أزهار التضامن والحب .

لقد كانوا في الواقع يؤلفون أسرة واحدة متآلفة يتنادى فيها الأتراب من الرجال والنفيات متعاطفين بقولهم : يا ابن العم أو يا ابنة عمي .

أويا أختاه . . . أما الشيوخ فقد كان الجميع يعملونهم ، ويحاطبونهم
بيا « عمى » أو « أبى » . وفي تلك الجماعة التي كانت تطبق - في دائرة
محدودة تطبيقاً مطلقاً - قول المسيح : « أحبوا بعضكم بعضاً » ، كان
الكل يعملون من أجل خير المجموع ومن أجل خير كل فرد . وكانت
القبيلة تشبه خلية النحل لكل امرئ فيها مهمته المعينة : فالشاعر يتغنى
بمآثر أهله وبطولاتهم ، وعلماء الأنساب يحفظون في ذاكرتهم موكب
الحدود ، والصناع ينسجون أقمشة يتفننون في تزيينها لتكون خير كساء ،
ويصوغون أسلحة يجيدون شحذها لتصبح خير سلاح ، والنساء يصنعن
الرجال ، والرجال يفوقون الأسود قوة وشجاعة .

وفي داخل هذه الأرستقراطية الجماعية - أرستقراطية القبيلة -
نهضت أرستقراطية أخرى هي أرستقراطية الأسرات .

ففي الإسلام أصبح الشرف يقدر من وجهة نظر دينية خالصة :
« إن أكرمكم عند الله أتقاكم » (١) .

ومنذ ذلك الحين اقتصر الشرف على سلالة النبي وسلالة الصحابة
أى أوائل من اعتنقوا الإسلام ، فالشريعة الإلهية هي التي تخلع على
الإنسان أعظم الشرف .

وأخيراً وفي نطاق شرف الأسرة ، كانت تسطع أرستقراطية الأفضل

(١) سورة الحجرات الآية (١٢) .

أو سيادته ، أى الجدارة الشخصية الفردية . أجل ، لقد كان الجنس شريفا نقيا ، وكان العربي صحيح العروبة ومن قبيلة مجيدة ، وكان ينتمى إلى أسرة شهيرة بالفضل من عهد بعيد ، ولكن ذلك كله ما كان يغنيه ، بل كان على كل رجل بدوره - معتمدا على فضائله وحدها - أن يكتسب ويغتصب تقدير أهله واحترامهم ومحبتهم وإعجابهم . . . كان عليه أن يمتاز بالحكمة والسخاء ، وبالشجاعة والفصاحة ، وبحماية النساء والضعفاء ، وباحترام أتباعه ، وكرم ضيافته ، وكان عليه فى حلبة الفضائل العربية أن يفوز بالسبق وأن يستحق أجمل صفة . . . صفة « الكمال » المجيدة . وبالحال من نظرية مليئة بالعظمة والفلسفة الاجتماعية التى تنفى ، وتجمل ، وتشرف الإنسان جسدا وروحا : فلقد كان أنبل الرجال وأجدرهم بالتشريف ، ذلك الذى يؤدى أعظم الفعّال وأكرمها وأشدها بطولة ونفعا . وكان ذلك هو الرجل الكامل ، والأرستقراطى بكل معانى هذه الكلمة ، فهو خلاصة الخير ، وأفضل الناس ؛ وإذ ذاك تصبح الأشياء المحيطة به أفضل الأشياء : فخيمته أفسح الخيام وأرحبها وأثمنها نسيجاً ومقتنيات ، وحياده أكرم الحياد وأشدها جلدا وأسرعها فى السباق ، وأسلحته أبهى الأسلحة التى تضيف إليها شجاعته رونقا جديدا دائما . وهكذا كان العرب يتصورون الشرف .

ولم جانب ذلك ، فقد كان الحال إذا تحالفت عدة قبائل لتشن حربا ، أن تعين لرئاستها جميعا قائدا واحدا لا يكون له بعد أن تضع

الحرب أوزارها حق التصدر على أقرانه من الرؤساء الآخرين . ولقد جرى العرف في ذلك على إسناد هذه القيادة العليا إلى من تسفر عنه القرعة ، شابا كان أم شيخا ، وإن كان يحدث أحيانا أن يعهد الحلفاء بقيادة الحرب إلى أعظمهم نسيا وشجاعة بإجماع الآراء . وعلى هذا النحو انتخب « حرب بن أمية » قائداً عاما لقبائل قريش في حرب « الفجار » .

ومن هنا نفهم مبلغ اهتمامهم بذكريات جدودهم إلى حد اتخاذهم من الأنساب علما من العلوم ، بل لقد كان يروق لهم في كل زمان ومكان ، في ميادين القتال وفي الأسمار ، أن يذكروا أنسابهم وبطولات أجدادهم ومآثرهم . وكان ذلك هو موضوع مناقشاتهم المعتاد ، وأحب ما يفتقون فيه أوقاتهم ، ومدار كبرياتهم ومباهاتهم ؛ فما من قصيدة في العصر الجاهلي إلا تضمنت أبياتا طنانة في الفخر تشيد بمجد السلف . وهذه هي المعلقة وأشعار السموءل والشنفري تتجاوب بأسماء عريقة ، وتذيع على الملأ مآثر القبيلة ، وكثيرا ما تطنب في تفصيلها . وإليك عمرو ابن كلثوم يقول :

ورثنا مجد علقمة بن سيف	أباح لنا حصون المجد حيننا
ورث مهلهلا والخير منه	زهيرا نعم ذخر الذاخرينا
وعتابا وكلثوما جميعا	بهم نلنا تراث الأكرميننا
وذا البر الذي حدثت عنه	به نحمى ونحمى المحجرينا
ومنا قبله الساعى كليب	فأى المجد إلا قد وليننا

ولقد كانت الأسماء العريقة والفعال الهامة تتعهدهما الذاكرة . ففي
عصور البساطة تلك ، كانت الرواية بمثابة العلم الوحيد الصحيح .
ولم تكن هناك دور للمحفوظات ، بل حتى لو كانت الكتابة معروفة
إذ ذلك لاستغنى عنها البدوى ، فهو حاد الذاكرة ويضيق بالتدوين
والترقيم . ومن أراد أن يقف على مدى ما احتلته الأنساب من مكانة في
الشرق زمننا طويلا ، فليفتح أى كتاب من كتب التاريخ ، أو الفلسفة ،
أو الغزل أو التوحيد، ولسوف يجد في تقديم كل واقعة وكل قول قائمة مئمة من
الأسماء على هذا النحو : « حدثنا فلان بن فلان بن فلان . . إلخ » . فقد
بلغ من تعظيم العرب للأنساب أنهم كانوا يصدد أى حادث أو شخصية
يظاون يصعدون في عصور التاريخ من أب إلى جد حتى يصلوا إلى آدم
أبي الجنس البشرى .

ولقد أعلن النبي أن علماء الأنساب دجالون ، ونهى أن يتجاوزوا
البحث في النسب معد بن عدنان ، وعدنان هو ثامن أو تاسع أحفاد
إسماعيل بن إبراهيم . على أن من أتقياء المسلمين من واصلوا الانتساب
إلى جد أقدم من عدنان ، لأنهم ظلوا مقتنعين بأن مزاعمهم قائمة على
أدلة لا سبيل إلى ردها . وهكذا يبدأ « أبو الفتح الإسكندراني » - وهو
كاتب ذائع الصيت من أدباء النصف الأول من القرن التاسع الهجرى -
موسوعة كبيرة عن الحيوان (في ٦١ مجلدا) ، بقائمة مسببة في سرد أسماء
أجداده ، تنتهى بآدم .

وإن هذه الأفواج المتلاحقة من الأعلام التي تشغل حيزاً كبيراً من المصنفات العربية ، وهذا الترف في ذكر الأسماء - مما لا نجد له مثيلاً في أى مكان - لأمر يبدو لنا الآن مملاً غير ذى جدوى ، ولكن علم الأنساب - إلى جانب الشعر وفن الخطابة - كان الغذاء العقلى الرئيسى للعرب . فلقد كان يمدهم بمادة من الألبان والطرائف وروايات الغزل ؛ إذ كانوا بالاستناد إلى بعض الإشارات يصلون إلى استعادة سلاسل الأسرات والمصاهرات التي ربطت كل أسرة بطبقة من طبقات قبيلة ما . وحسبنا مثل واحد ، هو قصة اقتران أمير المؤمنين المأمون بن هارون الرشيد بفتاة فلاحية . ولقد عرض للملوك في كل مكان أن يتزوجوا راعيات حسناوات ، بيد أن بطله قصتنا هذه لم تكن مجرد راعية حسناء . أجل ، فإنها لم تسب قلب الخليفة بعينها النجلاوين فحسب ، ولكنها أسرته فوق ذلك بعلمها المحيط بالأنساب :

حدث في ذات يوم أن خرج الخليفة المأمون للصيد ، فسبق حاشيته ، ووصل وحده قرب مجرى صغير من روافد الفرات . وهناك لمح فتاة مقبلة على الضفة ، تحمل سقاء من الماء على كتفها . فأوقف الأمير جواده يتأمل ملياً قامتها الهيفاء ، وصدرها الناهد ، وحركاتها الرشيقة ، وحسنها الوضيىء . ويسقط سقاؤها في اللحظة ذاتها وينسكب الماء ، نيتقدم الخليفة منها قائلاً :

- يا صبية ، من أى قبيلة أنت ؟

— إني من قبيلة بنى كلاب^(١) .

فقال الخليفة وهو يعث بالألفاظ :

— ماذا ؟ أنتسين يا صبية لقبيلة الكلاب ؟

فأجابته الفتاة في حدة :

— لست من قبيلة الكلاب ، وإنما أنتى لقبيلة كرم أهلها ،

ولم يلمهم لائم ، وعرفوا كيف يبذلون القرى وكيف يسددون ضربات

الرماح والسيوف . . . ومن أين أنت أيها المتعجرف ؟ وما نسبك ؟

فأجاب الخليفة :

— إني من مضر .

— من أى قبائل مضر ؟

— من أعرقهم أصلاً ، وأعظمهم جدوداً ، وأفضلهم أبوة وأمومة ،

من أولئك الذين يعظمهم جميع مضر .

— إذن فأنت من بنى كنانة ، ولكن من أى فروع بنى كنانة

أنت ؟

— من أشرفهم دماً وأعجمهم أصلاً ، وأجودهم يداً ، من أولئك الذين

يجلهم جميع بنى كنانة ويحشونهم .

(١) سئل أبو دانس الكلبى لماذا تطلقون على عبيدكم أسماء جميلة مثل سرور وجوهر

ومرجان وعلى أبنائكم أقبض الأسماء مثل كلب وكليب ومرارة ، فأجاب : إن عبيدنا قد أعدوا لنا أما أبنائنا فقد أعدناهم للأعداء .

– أفأنت من بنى قريش ؟

– نعم إني قرشي .

– فمن أى فرع من بنى قريش ؟

– من ألمعهم صيتا ، وأرفعهم مجدا ، من أولئك الذين يحترمهم جميع بنى قريش ويرهبون جانبهم .

– والله إنك لمن بنى هاشم جد النبي ، فمن أى أسرة من بنى هاشم

أنت ؟

– من أعلاهم مكانا ، من باتوا زينة القبيلة وشرفها ، من أولئك

الذين يخافهم ويعظمهم ويبجلهم جميع بنى هاشم .

فخوت الفتاة ساجدة تقبل الأرض وهى تقول :

– السلام عليك يا أمير المؤمنين ! السلام عليك يا إمام الله سيد

العالمين .

فطاب الخليفة نفسا وطرب ، وأنهض الفتاة وقد بدت له غنية بالجمال

غنية بالمعرفة وقال فى نفسه : « والله إني لمقرن بهذه الصبية اللطيفة ، فهى

أتمن خير عسانى أن ألقاه » . ولإذ لحقت به حاشيته ، أرسل فى طلب

أبى الحسناء ، وسأله فى الحال يد ابنته . . . فأصبحت أم العباس بن

المأمون . . .

على أن ذكر الأنساب لم يكن يؤدى إلى الزيجات السعيدة بقدر

ما كان يؤدى إلى التنازع والتحدى والنقائص البلاغية بين القبائل وبين

الأفراد كذلك . وقد اشتهرت المشاجرات على الشرف بين اليمن ومضر ، وبين الأوس والخزرج ، وبين فزارة وبني هلال ؛ كل قبيلة تدعى أنها أجد من غريمتها ، إذ هي أعرق أصلاً وأروع ذخيرة بالأعلام الذين تجلوا عبر تاريخها .

وكذلك حفظ لنا الرواة قصص المجادلات المعروفة « بالمنافرات » أى المشاجرات حول الأنساب ، مما نشب إبان الجاهلية بين شخصيات عظيمة الشرف ، كالمنافرة بين عامر بن طفيل بن مالك وعلقمة بن علاثة بن عوف ، والمنافرة بين جرير البجلي وخالد الكلبي ، والمنافرة بين هاشم بن عبد مناف وأمّية بن عبد شمس . . . وكانت المنافرات تجرى بطريقة من أبسط الطرق ؛ إذ يتحدى أحد المتنازعين الآخر ، ويتفقان على الرهان وعلى اختيار الحكم بينهما . وكان الحكم فى العادة شيخاً من المشهورين بالتزاهة ومعرفة الأنساب . وكان الرهان فى أكثر الأحيان قطعاً من مائة ناقة يوزعها الفاتز فى سخاء على أهل قبيلته . فإذا مثل المتنافران أمام الحكم ، أشاد كل منهما بمجد أجداده ومآثرهم ، وانطلق يفتخر بمناقبة الشخصية مثل قوله « إن أبى هو معبد الشهير بزارة وأمى معزة ، وإن عشرة من عمومتى ومثلها من نخولتى تولوا رئاسة القبيلة ، ولقد أجاز جدى ثلاثة ملوك متحاربين وأفلح فى حمايتهم جميعاً ، وهذه القوس قوس عمى التى وضعها بين يديه ملك العجم شهادة على العهد الذى

قطعته العرب قاطبة» (١) .

« وأما أنا فلي عشرة أبناء شجعان أسخياء ، ويشاطرنى مالى أذى
البائسين ، وإنى لأحمى اليتيم والنساء والمظلومين ، وفى يوم الوغى لا يعادل
بأسى سوى حلمى . . . » .

وبعد أن يصغى الحكم ويفكر ، ينطق باسم الفائز ، أى باسم ذلك
الذى ارتأى أنه أشرف بأجداده وفضائله .

ويجدد بنا - فى ختام ما أسلفناه عن اهتمام العرب بالأنساب اهتماما
بالغا - أن نتساءل : هل عرف العرب هذا العلم الحديث الذى اختص
بدراسة فنون الشعار لدى الأشراف ؟ وهل اقتبست منهم أوروبا فكرة الشعار
واستخدامه كما يرى بعض الكتاب ؟ والجواب أنه قد أدت « أبحاث فى
أصول الشعار » نشرها الأستاذ أدالبيردى بومون (Adalbert de Beaumont)
إلى النتائج التالية :

أولا - لم يتخذ الأشراف شعارا فى فرنسا إلا عقب الحرب الصليبية
الأولى - فى عهدى لويس السابع وفيليب أوجست .
ثانيا - كان اقتباس الفروسية والمباريات والشارات فى أوروبا تقليدا
للعرب وللفرس (٢) .

(١) متافرة ابن زارة وخالد بن مالك .

(٢) ص ١٢٧ .

ويذكر « لافيس ورامبو » في كتابهما « التاريخ العام »^(١) - عند استعراض النتائج الواقعية للحروب الصليبية - أن الفرسان قد عملوا إلى اتخاذ علامات مميزة لهم ، لكي يعرف بعضهم بعضا وسط حشود المحاربين ، ولقد كانوا اعتادوا فيما قبل ، أن يزينوا دروعهم برسم زخرفي . . . فأصبح هذا الرسم الزخرفي أثناء الحروب الصليبية علامة دالة على الأسرة لم تتغير بعد ذلك . وهكذا تكون منهج الشارات - الذي أطلق عليه فيما بعد اسم « الشعار » - وولد في الشرق كما تدل على ذلك الأسماء الشرقية التي تستخدم فيه مثل : gueules (جول) للون الأحمر من كلمة «غول» و rose أي «وردى» ، و azur (أزور) أي «لازوردي» وهو اللون الأزرق ، وكلمة فارسية «سينوبل» sinople أي اللون الأخضر ، وكلمة يونانية بمعنى العملات الذهبية «بيزان» bezants ، أما الصليب الذي يرسم في الشعار فهو المعروف «بالصليب اليوناني» . . . الخ .

ولسنا نزعم أننا ناقش هنا تاريخ « الشعار » أو نبحث عن مهده ، ولكننا نرى أنه كما عمد الفرسان - لكي يتعارفوا وسط حشود المحاربين - إلى اتخاذ علامات مميزة ، فقد عمد العرب كذلك إلى الاستعانة برموز وشارات معينة لتمييز كل قبيلة من الأخرى ؛ فكان لكل قبيلة رايته التي تصونها وتحرس على رفعها حتى بعد أن وحد الإسلام جميع العرب ،

(١) الجزء الثاني ، ص ٣٤٦ و ٤٧ .

بل لقد كان لهم حتى في أوقات السلم أعلام خاصة يرفعونها على أبواب مساكنهم حتى يعرفها الناظر من بعيد .

ولما كانوا يتباهون باللون الأصفر - رمز ملوك اليمن - ثم باللون الأحمر - رمز أهل الحجاز - فلا شك في أنهم تخيلوا شارات خاصة للتمييز وسط تلك المجموعات من الأعلام الصفراء والحمراء التي تهافتوا عليها . ومهما يكن من أمر ، فإن لدينا من الفروض القوية ما يقوم مقام البراهين في الاستدلال على أن أوربا قد استعارت من العرب فكرة الشعار وفن الشارات .

فهل خطر ببال فرسان فرنسا وإنجلترا - حين مضوا يرفعون أردانا من النسيج الهفهاف بمثابة الرايات ، وقد جهدوا في مبارياتهم حتى ينتصر لواء سيدتهم المحبوبة - هل خطر ببالهم أنهم ما كانوا في ذلك سوى مقلدين ما فعله النبي ؟ ؛ فإن التاريخ ينقل إلينا أن النبي كان قد أعطى جنوده المحاربين قطعة من الحرير - بمثابة العلم - كانت لزوجته عائشة ، وقد دعى ذلك العلم الأسود^(١) باسم « العقاب » وعهد بحراسته إلى علي بن أبي طالب .

(١) كانت أعلام العباسيين كذلك سوداء ، وكانت أعلام الأمويين بيضاء ، وأعلام الفاطميين خضراء . وقد جمع علم ملكة الحجاز الجديدة هذه الألوان الثلاثة (الأسود والأبيض والأخضر) في صفوف أفقية على عصابة عمودية حمراء قانية (فالأحمر القاني هو لون علم شرفاء ملكة الهاشميين) .